

محمد في أطوار حياته

در سيرة حياته

الاستدلال على صحة نبوته

(قل لو شاء الله ما تلوه عليكم ولا أدراكه به
فقد لبث فيكم عمراً من قبل أولي عقول)
(سورة يونس - ١٠١)



بم محمد
صلى الله عليه وسلم
فكانت معجزته
الكبرى هذا
القرآن الكريم
بفصاحته الباهرة
وما جاء به من
تشريع قويم في
أصول الدين
وفروعه ، على أنه
كان مع هذا بلجاً

إلى العقل فيستعين به في تأييد رسالته ، وإلى العلم فيستخدمه في
إثبات نبوته ، وإلى هذا تشير تلك الآية الكريمة من سورة
يونس (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكه به فقد لبثت
فيكم عمراً من قبل أولي عقول)

فهو يقيم في هذه الآية دليلاً على صحة نبوته يستند إلى دراسة
تاريخه قبل النبوة وبعدها ، وإلى دراسة نفسه في هذين الحائنين ،
والدراسة الأولى فرع من علم التاريخ ، والدراسة الثانية فرع من
علم النفس ، وسنقوم الآن بهاتين الدراستين ، ونتبع فيهما
أطوار حياته صلى الله عليه وسلم

الطور الأول : ولد صلى الله عليه وسلم يتيماً عائلاً ، لم يرث
من والده شيئاً ، لأن أباه مات قبل جده عبد المطلب وهو شاب
لا يكاد يجاوز حد العشرين ، فلم يرث شيئاً من مال أبيه ،
ولم يتمكن من أن يجمع شيئاً لابنه . بل مات بعد شهرين من
حملة ، ثم لم تلبث أمه أن ماتت بعد موت أبيه ، فكفله جده
عبد المطلب ، ثم كفله بعد وفاة جده عمه أبو طالب

وكانت قريش تعيش في مكة عيشة متحضرة تعتمد على العمل
والكسب ، ولا تعرف ما تسقنه البادية العربية في معيشتها من
الغزو والنهب ، فنشأ محمد صلى الله عليه وسلم على غريزة قومه ،
محِباً للعمل ، راعياً في الكسب الحلال ، وهو الذي قال بعد هذا
في رسالته : أطيب الحلال أن يأكل الرجل من عمل يده ، وإن
نبي الله داود كان يأكل من عمل يده

فما بلغ مبلغاً يمكنه أن يعمل عملاً أخذ يرعى النعم مع
إخوته من الرضاع في البادية ، ثم مضى في هذا العمل بعد أن
رجع إلى مكة ، فكان يرعى النعم لأهلهما على قرار يربط يأخذها
منهم ، كما روى هذا الامام البخاري في صحيحه

وكان في هذا الطور يميل إلى شيء من اللو البري ، وتذكره
عناية الله فيه كما تدرك كل شاب موفق ، وقد حكى عن نفسه في
ذلك بعد رسالته فقال : لما نشأت بُغِضْتُ إِلَى الْأَوْتَانِ وَبُغِضَ
إِلَى الشَّعْرِ ، ولم أُمِّ بِشَيْءٍ مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ،
كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت
بسوء بعدها حتى أكرمني الله برسالته ، قلت ليلة لفلان كان
يرعى معي : لو أبصرت لي غنم حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر
الشباب ، تخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً
بالدفوف والمزامير لعُرُس بعضهم ، فجلست لذلك فضرب الله
على أذني فممت ، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس ، ولم أقض شيئاً ، ثم
عمراني مرة أخرى مثل ذلك

الطور الثاني : فلما بلغ صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة سنة
أخذ يعمل في التجارة مع عمه أبي طالب ، فسافر معه إلى الشام
للتجارة وهو في هذه السن ، ولما حذق التجارة انفرد بنفسه عنه .
وكان في مكة سيدة تاجرة ذات شرف ومال تدعى خديجة بنت
خويلد من بني أسد بن عبد المزي بن قصي ، وكانت تستأجر
الرجال في مالها وتضاربهم إياه ، فسمعت عنه من الأمانة والصدق
ما رغبت في أن تستأجره للتجارة في مالها ، وكانت سنة في ذلك
الوقت خمساً وعشرين سنة ، فاستأجرته ليخرج في مالها إلى الشام
للتجارة ، على أن تعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ، فسافر إلى
الشام مع غلامها ميسرة ، فباعا وابتاعا وربحاً وربحاً عظيماً ، فسرت
به تلك السيدة الكريمة ، وكان زوجها قد توفي ولم تزوج بعده
فأرسلت إليه تحطبه لنفسها وكانت سنّها نحو الأربعين ، فقام مع

إلا أمر نفسه ، ولا يعنى بشيء من أمر غيره ، اللهم إلا بعض الأعمال الصالحة التي كان يقوم قومه بها ، فكان يشاركهم فيها ويقوم بنصيبه منها ، كما حصل منه في حلف الفضول بدار عبد الله بن جُدعان التميمي ، وكان المتحالفون فيه بنى هاشم وبنى المطلب ابني عبد مناف ، وبنى أسد بن عبد المزني ، وبنى زهرة ابن كلاب ، وبنى تيم بن مرة ؛ تحالفوا وتماقدوا ألا يجحدوا بكم مظلوماً من أهلها أو غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى ترد إليه مظلمته ، فحضر محمد صلى الله عليه وسلم هذا الحلف مع أعمامه وقال فيه بعد رسالته : « لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت »

ولم يمن صلى الله عليه وسلم في هذه الأطوار بشيء من الفصاحة والبلاغة ، ولم يحاول أن يكون بين قومه خطيباً أو شاعراً ، بل كان يكره الشعر كرهه لمباداة الأصنام ، مع أن الجزيرة العربية كانت تعج في ذلك الوقت بالشعراء والخطباء ، ولكن قريباً كانت لا تعنى بشيء من ذلك ، وإنما كانت تعنى بالمال والتجارة عناية أبناء عمومته من اليهود ، حتى كان حظها من الشعر دون حظ غيرها من القبائل ، وإن كانت لغتها أفصح اللغات العربية ، وإن كانت مواسم الأدب وأسواقها لا تقوم إلا في بلادها

وقد قضى محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الأطوار أربعين سنة من عمره ، قضاه على ما وصفنا في حياة هادئة ، وعيشة مطمئنة ، لا تحمد نفسه فيها بشيء مما حصل منه بمدها ، ولا تطمح في أميتها وقناعتها إلى أكثر مما وصلت إليه فيها

الطور الرابع : وقد بلغ صلى الله عليه وسلم أربعين سنة فإذا به ينتقل فجأة من تلك الحياة الهادئة إلى حياة عنيفة يشتد فيها الخصام بينه وبين قومه ، وينقلب ما كان فيه من عدم الببالاة بأمرهم حرصاً على مودتهم إلى اندفاع شديد نحو الاهتمام بأمرهم ، وإن أدى هذا إلى انقطاع تلك المودة التي كان يحرص عليها ، وكان في أهنأ ما يكون من العيشة بها بينهم ؛ وإذا به وهو ذلك الأمل الذي لم يجلس إلى معلم ، ولم يشتغل في تلك الأربعين سنة إلا بما ذكرنا من التجارة ورعى النعم ، ينقلب إلى خطيب لا يدانيه

أعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد فخطبها له منه عمه أبو طالب ، فزوجها عمها له ، وصارت بهذا زوجة خمساً وعشرين سنة ، وكان يعمل في مالها ويأكل من نتيجة عمله ، على أنها ما كانت تضن عليه بشيء منه

الطور الثالث : وكان في نفسه صلى الله عليه وسلم ميل إلى عبادة ربه ، وإلى العزلة عن ذلك المجتمع الموبوء برذائل الجاهلية ، فلما رزقه الله بتلك الزوج الكريمة ، وصار له مال يساعده على قضاء حاجة نفسه من عبادة ربه ، كان يقصد كل سنة في شهر رمضان إلى غار حراء ، فينقطع فيه للعبادة ، وكانت قريش تفعل ذلك في جاهليتها ، ولم يتدع منه صلى الله عليه وسلم شيئاً جديداً لم يكن يفعله أحد من قومه

وكان يخلو بهذا الغار فيتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، فتارة عشراً ، وتارة أكثر إلى شهر ، ويأخذ لذلك زاده ، فإذا فرغ رجع إلى زوجته فيتزود لثلاثها

وهذا الطور آخر أطواره قبل النبوة ، فإذا أردنا أن نستخلص منها شيئاً من خصائصه صلى الله عليه وسلم فيها وجدناه رجل عمل يعتمد على نفسه ، ويأخذ في ذلك بما اشتهر به قومه من الحذق في التجارة ، والرحلة فيها إلى الأقطار القريبة والناحية ، لا يشغلهم عنها شاغل ، ولا يهتمون بغيرها مما كان يهتم به غيرهم من العرب ، حتى عبرهم بهذا بعض شعرائهم فقال :

ألمى قصياً عن المجد الأساطير ورشوة مثل ما ترشى السفاسير
وأكلها اللحم بحثاً لا خليط له وقولها رحلت غير أنت غير

وكان في هذه الحياة العملية من أحسن قومه خلقاً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبدم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال ، حتى كان من أفضلهم مروءة ، وأكرمهم مخالطة ، وخبرهم جواراً ، وأعظمهم حلاً ، فأحبوه وركنوا إليه ولقبوه الأمين حتى غلب على اسمه هذا اللقب

وكان على علمه بفساد ما عليه قومه من عبادة الأصنام وما إليها يكتفى من هذا بالعزلة التي أخذ نفسه بها ، ويأخذ بما يأخذ به بعض الناس من الاهتمام بإصلاح نفسه وعدم الاهتمام بإصلاح غيره . وكأنه كان يضمن بذلك الحب الذي يحبوه قومه به أن يفسده بتخطئتهم ، وتسفيه ما ألفوه من عبادة أصنامهم ، فضى لا يهيمه

خطيب في فصاحته ، وعالم لا يدانيه عالم في علمه ، ويده كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يدعو به الناس أجمعين ، ويهديهم إلى دين الله الصحيح ، وترك ما دخله من التغير والتبديل والتحريف ، ويجلب على نفسه بهذا عداء الوثنية وزعمائها من قومه ، وعداء المجوسية وزعمائها من الفرس وأكاسرهما ، وعداء النصرانية وزعمائها من الروم وقيصرتها ، وعداء اليهودية وزعمائها من اليهود وأخبارها

فما هذا كله ؟ وما هذا الذي جعل من محمد الأمين بين قومه عدوهم اللدود وخصمهم المنيد ؟ لقد اختلفوا عند بناء الكعبة وهو ابن خمس وثلاثين سنة في الحجر الأسود أيهم يرجعه إلى موضعه من الكعبة ، ثم اتفقوا على أن يحكموا بينهم أول داخل إليهم ، فلما دخل إليهم قالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمد ، فبسط رداه ووضع الحجر عليه ، وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه ، فأخذه ووضعوه فيه

فما هذا الذي جعله بعد هذا يمرض نفسه لأن يتهموه بكل شنيعة من القول ؟ فيقولوا عنه مرة إنه ساحر ، ومرة إنه شاعر ، ومرة إنه كاهن ، ومرة إنه مجنون

إنه لم يفعل هذا من نفسه ، ولو أنه خلى ونفسه لمضى في تلك الحياة الهادئة إلى نهاية أمره ، وإنما كان يعمل في هذه الحياة الجديدة بأمر طراً عليه ، وغير من نفسه ما شئت عليه في تلك الأربعين سنة

فبينما هو في غار حراء قائم في بعض الأيام على الجبل إذ ظهر له شخص وقال : أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة ، ثم قال له : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، لأنه كان أمياً كما سبق ، فأخذه فنطه بالتمط الذي كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله ، فقال : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارىء ، فأخذه فنطه ثانية ثم أرسله فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، فأخذه فنطه الثالثة ثم أرسله فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم »

فرجع بها صلى الله عليه وسلم رجف فؤاده مما ألم به من

الروح ، فدخل على خديجة زوجته فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه روعه ، فأخبرها الخبر ، وقال لها : لقد خشيت على نفسي ، فقالت له : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فلا يسلط الله عليك الشياطين أو الأوهام ، ولا مرء أن الله اختارك لهداية قومك

ثم ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فكان يكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره خبر ما رأى ، فقال له : هذا التاموس الذي نزل الله على موسى ، ثم قال : يا ليتني فيها جذعاً إذ يخرجك قومك ، فقال : أوخرجني هم ؟ قال : لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وقد حقق الله نبوءة ورقة بهذه الهجرة التي نحي ذكرها كل سنة

وهذا هو حكم التاريخ وعلم النفس في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا يا إلهي بعض جهادى في نصر دينك أشكو إليك ما ألقاه بسببه من أذى ، وهو لتدني في هذه الدنيا إذا التذ قوم بمتاعها ، وأنت حسبي ونعم الوكيل

عبد المتعال الصعيرى

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوتة الأولمانى

الطبعة الجديدة

ترجمها : أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالية تمد بحق من آثار الفن الخالد

ومنها ١٥ قرشاً